باحثة البادية

(٢)

المرأة

انَّ في بعض الناس قوةً لا تكيّفها النعوت . ليست هي الذكاء وان كان الذكاء بدونها بلادة ولا الجمال وان عدم الجمال ميزة التأثير بفقدانها . ولا هي توازن تراكيب الجسم وتناسب الاعضاء ونضارة الصحة وكلّ هذه تافهة اذا حُرمت منها لانها العنصر الخفيّ الحيي الذي ينفعل بهِ الاقوام ويخضعون لسطوتهِ مريدين كانوا ام غير مريدين . لقد دُعي ذلك العنصر مغنطيساً وكهرباء وجاذبية ولطفاً وخفّة دم وخفة روح و « نفاشة » ولكنّ جميع هذه المعاني ليست الاَّ اجزاء منهُ وتشترك معها في تأليفهِ معانٍ اخرى شتى

انها القوةُ عجيبةً قد تحوّل ما هو في عرف البشر قباحة الى جمال فتان : فهي بروقُ الذكاء المتألقة في العيون وسيال اللطف المتدفق في الابتسام واغنيةُ الروح المتماوجة في نغمة الصوت . هي سحرُ الحركةِ وهي وسمُ الامتياز وهي جلالُ الهيبة وهي قداسةُ السكوت . هي المتياس السريّ الذي يكيف الاشارة ويوقّع الخطى والشرارةُ التي تضرمُ نار الفكر والنورُ الذي يجعل كثافةَ المادة شفافة . هي اليدُ العلوية التي اذا حلّت لسان المتكلم كان بليغاً واذا اشارت الى الناظر بدت نظرتهُ عميقةً واذا قادت قلمَ الكاتب كانت كتابتهُ شائقةً فعّالةً يبقى صداها داوياً في اعماق النفوس

وكلٌّ من عرف باحثة البادية شخصياً اي معرفة الجسد او معنوياً اي معرفة القلم علم انها كانت حائزةً لهذه القوة التي حارت في تعريفها الاسماء . قد كان يكفي ان يعرفها المرء ليشعر بانجذاب اليها وليحبها وقد كان يكفي ان يقرأ احدى مقالاتها ليرغب في مطالعة كل ما كتبت منفعلاً على رغم منهُ بالنفَس الحارّ المالىء سطورها حتى لقد يتبين توهج اللهيب المعنوي بين سواد الحروف . عبثاً تبحث هنالك عن الكاتب الذي يعلو بك الى قمم الادراك والعرفان ويبتدع لك من روحهِ جناحين تطير بهما الى الآفاق البعيدة . انَّ مؤلفة « النسائيات » قائمة

بالنظر الى الغرفة التي تسكنها والحي الذي تسير بين منازله والبيئة التي هي جزء منها . وحينما تعثر على ما لا يرضيها — وما اقل ما يرضيها ! — تضرب عؤلفات الباحثين وشروح العلماء عرض الحائط غير معتمدة الاّ على ما تختبره بالمشاهدة وسرعان ما تقابل بين ما تراه عند الغير وما يشبهه مما طرأ عليها او قد يكون مهدداً حياتها . هي عين ترى ما هو كائن فتذكر ما يجب ان يكون . على انّ هذه العين لا تنسى لحظة انها عين امرأة فما تكاد تلمح خيال اللوعة حتى يحترق القلب منها لهفاً وتذوب ذراته وجعاً . واذا طرقت موضوعاً تهتز له طبيعتها النسائية من اقصاها الى اقصاها سمعت منها هذه اللهجة الخلابة :

« انه لاسم فظيع (تعدد الزوجات او الضرائر) تكاد الانامل تقف بالقلم عند كتابته . فهو عدو النساء الالد وشيطانهن المريد . كم قد كسر قلباً وشوش لباً وهدم اسراً وجلب شراً . وكم من بريء ذهب ضحيته وسجين كان اصل بليته واخوة لولاه لما تنافروا ولا تنابزوا ففرقهم ايدي سبا واصبحوا تأكل الحزازات صدورهم ويضمرون السوء بعضهم لبعض يثأرون ولا ثأر بني وائل وكانوا لولاه متقين

« انه لاسم فظيع ممتلىء وحشية وانانية . كم اسرج رجلاً وعلمه الكذب فافسد عليه خلقه وكم بدد مالاً كان يعده البعض رزقه وكم احفظ قلب والد على ولده وكم علم الوشاية والحسد . فاذا ما طوقت ايها الرجل بعرسك الجديد فتذكر وراءك بائسة تصعد الزفرات يتساقط من مآقيها امثال لؤلؤ عروسك ولكنه صهرته نار الحزن فظهر سائلاً . واخش انه في صدرك يكون لكاتها علمتهم الحزن فاستعاروا بواكيت عروسك اعيناً . انت تقرع سمعك الطبول والمزامير وهم لا يسمعون الا دق الحزن في طبول آذانهم وكانوا من قبل ذلك جذلين » (١)

قد ينظم الشاعر هذه الزفرات ابياتاً عامرة وقد يطلعك العالم الاجتماعي على سلسلة علله ومعلولاته مثبتاً لك شر تعدد الزوجات ولكن قلما تجد في قصيدة ذاك وابحاث هذا تأثيراً يهز نفسك كما تفعل هذه السطور القلائل . ليس ما قرأته هنا بصادر من الفكر او بناتج عن الملاحظة والتنقيب بل هو اضطراب قلب جالت فيه المرارة مكونة اناّت ما لبث القلم ان وقعهن على وفق ضربات القلب الخافق . ان هذه الفقرة لا يكتبها الاّ قلم امرأة

*

نحن الذين اعتدنا ان نرى في والدتنا سيدة البيت الداعة وربة المنزل المطاعة

(١) النسائيات

لا نستطيع ادراك ما هي عليه طائفة كبيرة من اخواتنا من الشقاء تحت التهديد المتتابع بالطلاق. ولا يمكننا تنبيه الانفعال الذليل المتحدر بهن الى مهبط الخوف والقلق واضحاً بين المرأة وبين تقديرها لكرامتها واعتبارها لنفسها هوة سحيقة. وقد فطن أحد متر في «النسائيات» الى عجز الامم غير الاسلامية عن ادراك ذلك فلام الباحثة لوماً لطيفاً اذ قال:

لقد جوزت في ذلك الباب (باب الازدراء بالمرأة) المرأة في نظر الرجل اليوم على نحو ما كانت عليه في الجاهلية الاولى وهذا امر قلما طابق الواقع وهل كان من حرج على السيدة ان توسع المسألة بحثاً وان ترقب اليوم الذي تترجم فيه مقالاتها الى اللغات الاجنبية فتنشر احكامها على هذه الامة في العالم الاوربي الذي يجهل معنى الغلو البديعي وانه من المحسنات في اللغة العربية حيث يعتقد الاوربيون لا سيما نساؤهم اننا اليوم على ما كانت عليه جاهليتنا منذ اربعة عشر قرناً وناهيك بما يحدث هذا القول في العالم المتحضر من الآراء وما يجلبه علينا بعد ذلك من البلاء (٢)

غار حضرة المنتقد على سمعة قومه فاراد ان لا تقال الحقيقة كما هي حتى ولا في فم من لا يبغي الا الاصلاح. ولكن اذا تعمدكتم ما هو جار وسدل الحجاب على شقاوة كبرى فلا يكفي تنبيه باحثة البادية الى ذلك بل عليه ان يكسر جميع الاقلام الشاكية وان يُسكت زفرات القلوب المكلومة. عليه ان يثلج دماء الشبيبة الطامعة في توطيد دعائم الاسرة وحفظ كرامة المرأة وان ينزع الافئدة من الصدور لتكف عن الشعور بلوعة التقهقر الماثل. نعم ليكسر الاقلام وليمزق الطروس وليسل الالسنة ليجهل الغرب علة دامية في الشرق. اما باحثة البادية فلم تفكر قط في ذلك بل أثبتت الواقع بصراحة ناشدة الاصلاح فقالت:

«اي ازدراء بالمرأة وعبث بحقوقها أشد من ان تخرج كلمة من فم الزوج ساعة غضبه تفرق بينهما وتشتت ماشملهما واي امن لها في مستقبل مظلم لا تدري متى ينهار بناءه؟ ان الدين لا يسمح بتعدد الزوجات والطلاق هكذا على غير شرط كما يفعل الآن رجالنا وانما جعل لهما شروطاً وقيوداً لو اتبعت لما أن منهم النساء البائسات» (٣)

أين «الغلو البديعي» الذي يشكو منه هنا الاستاذ المنتقد؟ أين «الغلو البديعي» في ما تقرره الباحثة من ازدراء الشرقيين مسلمين كانوا ام مسيحيين بالبنت في جميع ادوار حياتها وتفضيل الصبي عليها قبل ولادتها وبعدها؟ وأين ذلك «الغلو» من مسألة الطلاق كما هو شائع الآن؟

(٢) انظر باب التقاريظ في آخر «النسائيات» (٣) النسائيات

ثم ان سهولة الطلاق كادت تلغى من الطبقة العليا ويندر وجوده بين من يغارون على سمعتهم وينهمون معنى كرامة الاسرة من الطبقة الوسطى . ولكن هؤلاء هم الاقلية والطلاق شائع عند الاكثرية شيوعاً كبيراً . وهاك ما كتبته باحثة البادية بعد الاختبار الشخصي :

« وهذه البادية التي اتقطن لا ابالغ ان قلت ان جميع نسائها جرّبن الضرائر . طالما سألت امرأة الحي هذا السؤال : « ترين هل تحبين زوجك الآن كما كنت تحبينه قبل زواجه من غيرك ؟ » فكان جواب كل من سألت سلباً . وسمعت من اخريات انهن يفضلن ان يرين نصف أزواجهن محمولاً على الاعناق من ان يرينهم متزوجين باخريات . فيا لله ! الى هذا الحد يبلغ بغض المرأة للضرة ؟ » (٤)

ان هذا الموضوع يفتح باب الفصاحة عندها . واذا قالت حيناً بوجوب الطلاق فما ذلك الاّ لانها ترى فيه ما يخفف شقاء المرأة . قالت :

« والطلاق على مذهبي أسهل وقعاً واخف ألماً من الضر . فالاول شقاء وحرية والثاني شقاء وتقييد . فاذا كان الشقاء واقعاً على كل حال فلماذا تلتزم المرأة الصبر على الشدة ترى بعينها ما يلهب قلبها ويدمي محجريها ؟ ألا ان حزناً حراً خير من حزن أسير ! وبعضهم يخادع المرأة الاولى بان يجعلها حاكمة على البيت معها مفاتيح خزائنه . ولكن ماذا تفيد مفاتيح المزائن والحكم على السمن والعسل وأين هذه من مفاتيح القلوب وحب الزوج ؟ » (٥)

ألا يخيّلُ اليك أن هذا الرجل الذي يدورُ على زوجاتهِ وفي يده حزمةُ مفاتيح يفرّقها لهو من رجال القمر أو سكان المريخ أو على الاقل من أشباح الاقاصيص والاساطير ؟ ولكن لا ! ان ذلك مع الاسف واقع على مقربة منا . ومن اخواتنا من هنّ ذكياتُ الفؤاد جميلاتُ الوجه والنفس لطيفاتُ الشعور شريفاتُ الميول وعليهن ان يحتملنهُ وان يصبرن على مضضهِ لانهُ امرٌ داخل في عادات قومهن !

انّ باحثة البادية لا ينضبُ ينبوعُ اجادتها في هذا الموضوع وما اكثر ما تصيب في نقدهِ مستخرجةً منهُ دروساً اخلاقية كقولها :

« تعدد الزوجات مفسدة للرجل . مفسدة للمال . مفسدة للاخلاق . مفسدة للاولاد . مفسدة لقلوب النساء . والعاقل من تمكن من اكتساب قلوب الغير فكيف بقلوب الاهل والعشراء » (٦)

(٤ و٥ و٦) « النسائيات »

ثم تشرح كلاً من هذه شرحاً وافياً في مقال هو من أجل ما كتبت بل هو في تقديري أتم فصولها وأبدعها

***

على أن مطالبها لا تتوقف عند قلة الضرائر والتفرد في المنزل بل هي تنكر زواج هذا العصر القائم على الطمع وحب المال وتتطلع الى تلاؤم الاذواق والتفاهم المعنوي . اقرأ هذا التهكم الممزوج بالغيظ :

« اذا اجتمعوا (المصريون) بسائحة افرنجية او امرأة غريبة تلطفوا لها كثيراً فساعدوها في النزول من عربتها وامسكوا لها حقيبتها ورفعوا الطرابيش (؟؟؟) اجلالاً لها في حين ان احدهم يستنكف الركوب مع امرأته في عربة واحدة . واذا سافرت او انتقلت الى محل آخر تركها وشأنها كأنه لم يكن صاحب الافكار المدنية القائل بمساعدة المرأة . واذا ازدحمت الطرقات في موكب او مولد مثلاً رأيت الرجال يدوسون النساء ويضربونهن بالمناكب كأنه زحام الحشر . فهل هذا مبلغ احترام النساء عندنا ؟ » (٧)

كتبت هذه السطور منذ سنوات عشر . واذا بقي هذا الوصف منطبقاً في يومنا على جمهور من الرجال فان هناك عدداً كبيراً من الطبقتين العليا والوسطى قد تغيرت منهم العادات تحت تأثير المدنية وفعل السفر الى اوربا ومشهد الوحدة العائلية (ولو في الظاهر فقط) عند الغربيين . فصاروا يركبون مع زوجاتهم وبناتهم ويرافقونهن في السفر والنزهة . فكثيراً ما يُرى الآن الرجل المصري في مركبة او سيارة وبقربه زوجته وتقابها الابيض الشفاف يضاعف جمالها الشرقي . ولا يندر ذلك على طريق الجيزة والاهرام وفي الجزيرة حيث يكثر الازدحام ايام الجمع والآحاد خصوصاً وفي الاعياد والمواسم الكبرى

ولئن حملت كاتبتنا على الرجل بلا مجاملة فهي لا توفر المرأة على انها تعطف عليها غالباً حتى في خطإها وعثرتها وتلوم الرجل لانهُ القوي ومنهُ تنتظر المساعدة والقدوة الحسنى . وبدلاً من ان يستبد بسطوته فيصير سيداً رهيباً هي تريد ان يستسلم لعوامل الحنان فيصبح صديقاً مؤدباً مصلحاً بالطف ولين . قالت

« في اعتقادي ان الرجل لو خفف قليلاً من كبريائه وعلم ان امرأته مساوية له في جميع الحقوق المشتركة وعاملها معاملة الند للند او على الاقل معاملة الوصي لليتيم لا معاملة السيد للعبد لما رأى منها

---

(٧) « النسائيات »

هذا السائد الذي يشكره ولا طاعته حباً به لا خوفاً منه. فبعثت الدهر الحالي حتى الجاهلات منهن يفهمن الحياة اكثر من امثالهن الغابرات . فاصبحن لا يرضين الكسوة والطعام فقط كاحدى خدم المنزل ولكنهن يقدرن اليوم السعادة الزوجية اكثر من ذي قبل ويعلمن انه اذا لم يكن الحب اساس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما » (٨)

الحمد لله ! لقد آن لهن ان يفهمن ذلك ولو تجرعن في سبيله من العلقم كؤوساً ! أليس افضل للمرء ان يسير نحو ادراك المعاني واستكناه الحياة ولو مخطئاً ضالاً من أن يظلّ مستكناً في ليل الذل راضياً بقيوده قانعاً بجهله وهو يحسبهُ عقلاً وطول اناة ؟ انما المرأة في موقف الاستعداد دون الجوامد حساً لان هذه تستعمل اقصى ما عندها من قابلية الحس اما المرأة فان لم تجاهد في تهذيب ما عندها من الملكات كانت قاتلة قواها بيدها . والقوة التي تبعثرُ مؤديةً الى الفوضى ان لم تعرف لنفسها قانوناً هي ذاتها اذا دُرّبت كانت عنصر الارتقاء الرفيع . ولئن عزّ السيرُ بانتظام بعد ليل العبودية الدامس لان العين التي اعتادت الظلام يبهرها الضياء في بادىء الامر لكنها لا تلبثُ ان تألفهُ فتتمتع به لاجئة فوضاها مصلحةً احوالها . ليس هذا رأي الباحثة وسننظر في ما تشير به يوم ندرسها مُصلحةً . غير انها لا تنفكُّ عن العودة الى شعور المرأة ليعتدّ به الرجلُ ويجعلهُ مقياساً لاعماله واقواله . فقد تختلف عندها ألفاظ الشكوى غير أن معنى الانين ثابت لا يتغير . كلُّ شيء في نظرها افضلُ من « ايلام نفس المرأة وتنغيص حياتها . يا لله ! أليس لها من قلب يتأثر وشعور يحس وعواطف تثورُ ؟ »

***

هي امرأة بكل معنى الكلمة . اي انها تبدي يوماً خلاصة ما يجول في نفسها وتضطرب لهُ جوانحها ثم يثبُ فكرها في يوم آخر فتثبتُ عكس ما جاءت به قبلاً على خط مستقيم . فهل هي مناقضة ذاتها ؟ كلا ! بل هي مفصحة عن نفس كثيرة النزعات جمة الميول كأنما هي جوهرة ذات سطوح شتى تلمعُ في كلّ منهنّ الوان جذابة واشعة فتانة بينما عنصر الجوهرة يظل واحداً . رأيتَ انها كثيراً ما تستعطفُ الرجل بلهجة المتوسل المتعمد تنبيه الاشفاق في نفسهِ . والآن اقرأ واضحك :

(٨) « النسائيات »

« ولا يغيظني اكثر من ان يزعم الرجال انهم يشفقون علينا . انا لسنا محلاً للاشفاق بل نحن اهل للاحترام . فليستبدلوا هذا بذاك . والاشفاق لا يتأتى الا من سليم لعليل او من جليل لحقير فأي الصنفين يعتبروننا ؟ فانا انا لتأنف ان تكون احد هذين »

بل قد يتأتى الاشفاق من صديق لصديق ومن محب لمحبوب . وحذف الرحمة من القلب يعني حذف الوداد معها في آن واحد لان الاشفاق من العناصر الجوهرية المؤلفة عاطفة الحب . والقلب الذي لا يشعر مع من يحب ولا يشفق عليه الا قليلاً انما هو محب حباً ملؤه الجفاف والانية والبرد الوثني

لماذا يشفق الرجل على المرأة ؟ لانها تنفق حياتها تائهة في لجج هوة لا يعرف هو منها الا الشاطىء وهي هوة العواطف . فللرجل كبرياء الجولات الفكرية والاطماع المتزايدة والقوة البدنية . اما المرأة فهيا ارتقت وتناهت نشاطاً ورغبة في تسنم ذرى الفكر ليست بقادرة على ان تستخرج من نفسها آثار ذلك الارث الذي اودعتها اياه يد العصور وهو قوة الشعور قوة الحب التي تحلق من الكائن الترابي المادي إلاهة سامية جليلة

والمرأة القوية القادرة بإرثها النسائي ضعيفة جداً ازاء نفسها وفي ذلك ما يستدعي الاشفاق والاجلال معاً . وليس الاشفاق بقاتل الاحترام وملاشيه بل قد يجتمعان متساندين متعاضدين . فكم تشفق المرأة الضعيفة على الرجل القوي وكم تكون قوته ذاتها موضوع عطفها وذلك لا يقلل من اعجابها به بل كثيراً ما ينتبه حبها وينمو ساعة الشعور باحتياجه الى مساعدتها . فلماذا لا ينمو كذلك حب الرجل تحت فعل الاشفاق وكم كان الاشفاق مقدمة الحب وهل في القلب المغلق في وجه الرحمة المذبة مكان للحب السامي الاكيد ؟

ولكن لا يجفلن القارىء لهذه النوبة الكلامية من الباحثة ! انه سيسمعها بعد حين عائدة الى الابتهال !

***

لن احاول وضع رسم معنوي لها لان كل رسم يقلل واهي الخطوط ازاء الصورة التي جمعت فيها نفسها بيدها في السطور الآتية :

« لماذا يبي تدعي مني بالعذاب المعنوي ! ألا ان العذاب البدني أخف منه وطأة واخف اثراً . على اني جربت كليهما وذقت الامرين معاً . تقولين ذلك لانه أثار المقدسة » . نعم . لقد اعطاني من القداسة مقداراً اكثر مما يجب فلي حق جعل انبوب بعيداً جداً بيني وبين هذا العالم

غير التدليس . تقولين انه « النار التي تطهر » . حقيقة . انه نقى وجداني بالتطهير منذ ان كان لي وجدان حتى صيره شفافاً يظهر كل شيء ويتأثر لاقل شيء . وهذا فيه من الضيق ما فيه . تقولين انه « النار التي تحيي » . نعم انه أحيا روحي حتى أحرقها لانه كان كمصباح سيال كهربائه شديد وتكن جهته لا تحتمل « هو النار التي تبلي » . هذا ما ابديت ولكن ألا تعتقدين ان اللين يؤذي خصوصاً في هذه الدنيا التي كلها صدام وعراك وانه لا يفل الحديد الا الحديد . انه ألانني حتى صيرني ماء . وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع انه اصل الحياة ! ! وختمت حسن تدليلك لمذأبي بقولك انه « النار التي ترفع النفس على أجنحة اللهب الى سماء المعاني السامية » . نعم انني الآن على أجنحة اللهب ولكني لم اصل بعد الى السماء واذا وصلتها فلن يعرف العالم زواني » (٩)

يومئذ حسبتُ هذه الجملة الاخيرة زهرةً من زهرات البيان ولم اكن ادري انها نبوة فما تلقيتها الا اليوم بالتصديق فجاء تصديقي متأخراً ! لقد وصلتْ الآن الى « السماء » فاذا وجدتْ هنالك حيث احتجبت عن ابصار البشر متفرغة لاستقبال وجه البقاء ؟ انها اردفت الفقرة السابقة بهذه الجملة : فهل يا ترى ستعجبني السماء ؟ اني اشك في ذلك ؟

اما انا فاعلم انها هي انتي كانت ذات قابلية للتكيف بقالب الاحوال المارة لم تكن راضيةً عن « الارض » وسخطها على هذه الكرة هو الذي جعلها تشك في « هل ستعجبها السماء » . لقد كانت كجميع ذوي المزاج العصبي والعصبي الصفراوي المستعدين للكآبة شديدة الشعور مع ميل الى الحزن وقد قوّى ذلك فيها تأثير المطالعة والقراءة واعترفت به حيث قالت : « اول ما حفظتُ من الشعر المراثي واولها رثاء الاندلس . وكنتُ في حداثتي اقرأ كثيراً ديوان المتنبي واعجب بنفسه الكبيرة واظنه هو الذي اعداني في ذلك وسمم آرائي . رحمه الله اني الف كثيراً بهذه العدوى »(١٠)

وقد تكون مدينة له كذلك ببعض الحكم المنثورة في فصولها كهذه مثلاً : « فالتجربةُ ارشدُ معلّم والليلُ والنهار كفيلان بتأديب من لا مؤدّب له »(١١)

* * *

من الادوار الثلاثة المهمة التي تستغرقُ حياة المرأة اي ادوار البنوّة والزوجية والامومة كانت تحت تأثير الدور الثاني يوم كتبت « النسائيات »

---

(٩) « بين كاتبتين » نشرت في المحروسة
(١٠) « بين كاتبتين » نشرت في المحروسة
(١١) « المصريات ومزية التوفير » نشرت في الجريدة

لخروجها من دور البنوة الصرف . ولما لم ترزق ولداً ينال نصيبهُ من عنايتها فقد قلَّ اهتمامها محصوراً في موقف الزوجة ومركزها في العائلة والامة . نعم انها بحثت في جميع ادوار المرأة المصرية من الطفولة الى الشيخوخة ولكنها كانت بالزوجية اكثر اهتماماً منها باي دور نسائي غيره. اما في احاديثها فكانت تكثر من ذكر ابيها وقرينها مما يدل على مقدار احترامها لهما وتعلقها بهما

زرتها مرةً وسيدة انجليزية فوجدنا صالونها مملوءاً بالزائرات المسلمات من والدات وفتيات ودارت بينهنَّ مناقشة جدية في ما اذا وقع خلاف بين اب المرأة وزوجها فايهما تتبع . فكثرت الاقوال واحتدم الجدال الى ان قالت شابة عروس عام : « مات ابي منذ سنوات خمس فحزنت عليهِ حزناً شديداً وما زلت ابكيهِ الى يومي هذا. ولكن اذا مات زوجي اموت معهُ ولن اعيش بعدهُ لحظة لابكيهُ » . فاعترضت والدة هذه السيدة بلهجة جعلتني اظن ان بينها وبين صهرها سوء تفاهم في امر من الامور وانها تود استمالة ابنتها اليها. لكن باحثة البادية دخلت بينهما قائلة بلهجة جمعت بين الجد والمزاح : «مكثتُ في دار ابي عشرين سنة ولما تم لي هذه المدة عند زوجي ... » فقاطعها هنا بعض الزائرات قائلات : « ما هذا ؟ اتجعلين طول الاقامة ميزاناً للحب ؟ »

قلتُ ان باحثة البادية امرأة بكل معنى الكلمة اي انها لا تريد ان يعرف الجميع خفايا ضميرها ولا تريد ان تجرح زائراتها . وقد كان لديها مع قلمها (الذي كان صريرهُ يشبهُ أحياناً وخز حربة صغيرة غمست في مداد انما هو مزيج من مرارة وطيب) سلاحٌ آخر نسائي محض وهو الضحك وما يتقدمهُ من نظرات لطيفات المعاني وما ينتج عنهُ من ارضاء الجميع دون اغضاب احد والتخلص من المواقف الحرجة بمهارة وبساطة

لو قالت « تتبع المرأة زوجها » لغضبت الامهات ولو قالت « تتبع والدها » لسخط الاخريات. فلم تقل هذا ولا ذاك بل ضحكت في وسط الصوضاء والاحتجاج والاعتراض ضحكة فضية كرنين البلور على البلور أعقبتها بنكتة صغيرة كانت مقفلة باب الموضوع ومرغمةً جميع الحاضرات على الاشتراك في الضحك . وما كان اجمل ضحكة ثغرها الجميل بينا شفتاها القرمزيتان تتلامسان بالفاظ مصرية التركيب واللهجة والمعنى !

(مي)